﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النّساء: 153 - 154]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآيةِ السَّابقةِ كمالَ إيمانِ المؤمنينَ بالله برُسُلِ الله قاطبةً، وما أعدَّه لهم من الرُّتَبِ العاليةِ والأجورِ العظيمة؛ عادَ بيانُ الله هنا في هاتيْنِ الآيتيْنِ مُندِّدًا بأهلِ الكتابِ الَّذين فرَّقوا بينَ الله ورُسُلِه، ولم يؤمنوا بجميعِ الرُّسُل، مُستعرضًا على وجهِ الخصوصِ مَطالبَ اليهودِ العَجيبةِ واقْتراحاتِهمُ المعبِّرةَ عن غايةِ سُوءِ أدبِهم مع الله ﷻ، سواء منها ما طالبوا به رسولَ الله محمَّدٍ ﷺ من إنزالِ كتابٍ من السَّماء، أمْ بما سبقَ منهم بسؤالِ نبيِّهم موسى عليه السلام بأنْ يُريَهمُ الله عَيانًا من غير سِترٍ ولا حِجاب، وبكفرِهم باتِّخاذِهمُ العجلَ إلهًا لهم من دونِ الله، وما حلَّ بهم من عذابٍ - بسببِ طُغيانهم - بإهلاكِهم بالصَّاعقة، ثمَّ عَفْوِ الله عنهم، وبرفعِ الله لجبلِ الطُّورِ فوقَهم حين امْتَنعوا من الالْتزامِ بأحكامِ التَّوراة، وأُمِروا بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ ساجدينَ أذلَّاءَ لله ﷻ، وألَّا يَعتدُوا في يومِ السَّبتِ بالصَّيد فيه، وأخذِ الله الميثاقَ الغليظَ المؤكَّدَ عليهم في ذلكَ كلِّه.

وفي ذلك كلِّه تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ في أنَّ عادةَ اليهودِ التَّعنُّت، ودَيْدَنَهُم الكفر، وأنَّهم أغْرَقُ النَّاسِ في غِلَظِ الأكبادِ وجَلافةِ الطَّبائع، بدءًا بأسلافِهم وانتهاءً بهم وبمن يخلُفُهم إلى يومِ القيامة[1].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/454.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: الصَّاعِقةُ والصَّاقِعةُ يَتقاربان، وهما الهَدَّةُ الكبيرة، إلَّا أنَّ الصَّقْعَ يُقالُ في الأجسامِ الأرضيَّة، والصَّعقَ في الأجسامِ العُلويَّة، قالَ بعضُ أهلِ اللُّغة: الصَّاعقةُ على ثلاثةِ أَوْجُه: الأوَّلُ: المَوتُ: كما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾. والثَّاني: العَذابُ: كقولِه تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فُصِّلت: 13]. والثَّالثُ: النَّار: كقولِه سُبحانه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرَّعد: 13].

وما ذُكر فهو أشياءُ حاصلةٌ من الصَّاعقة، فإنَّ الصَّاعقةَ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ من الجوِّ، ثمَّ يكونُ منها نارٌ فقط، أو عذاب، أو مَوْت، وهي في ذاتِها شيءٌ واحد، وهذه الأشياءُ تأثيراتٌ منها، ويُقالُ: صَعِقَ الرَّجلُ صَعْقةً وتَصْعاقًا: غُشيَ عليه[1].

2) ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾: الأَخْذُ: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، وذلكَ تارةً بالتَّناوُل، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يُوسف: 79]، وتارةً بالقَهْر، كقولِه تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

والاتِّخاذُ: افْتعالٌ من الأَخْذِ إلَّا أنَّه أُدْغِمَ بعدَ تَلْيينِ الهمزةِ وإبدالِ التَّاء، ويُعدَّى إلى مفعولَيْن، ويَجري مَجْرى الجَعْل، وقولُه تعالى في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾، أي: جَعلُوه إلهًا، فعبدُوه من دونِ اللهِ الأَحَدِ ﷻ.

3) ﴿سُلْطَٰنًا﴾: السَّلاطَةُ: التَمكُّنُ من القَهْر، يُقالُ: سَلَّطْتُهُ، فَتَسَلَّط، قالَ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: 6]، ومنهُ سُمِّيَ السُّلطانُ، والسُّلطانُ يُقالُ في السَّلاطَة، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: 33]، وسُمِّيتِ الحُجَّةُ: سُلْطانًا، قالَ تعالى – كما في الآية الَّتي معنا – : ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، أي: حُجَّةً بَيِّنةً واضحةً ظاهرةً[2].

4) ﴿لَا تَعْدُوا۟﴾: العَدْو: التَّجاوزُ ومنافاةُ الالْتئام، والاعْتداءُ: مُجاوزَةُ الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ [النِّساء: 14]، ومنه قولُه تعالى في الآيةِ الَّتي

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 484 - 485، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (صَعَقَ).
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 420، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سَلَطَ).

معنا: ﴿لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، أي: لا تَعتَدُوا، وذلكَ بأخْذِهمُ الحيتانَ على جهةِ الاسْتحلال[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخْبرُنا اللّه تعالى بأنَّ اليهود، سَألُوا رسولَ اللّه ﷺ أنْ يَرْقَى إلى السَّماءِ، وهُم يَرَوْنَه، فيُنَزِّلُ عليهم كتابًا مكتوبًا فيما يدَّعيه يدُلُّ على صدْقِه دفعةً واحدةً، كما سألوا من قبلُ موسى عليه السلام سؤالًا أكبرَ من هذا السُّؤال، فقالوا: يا موسى أرِنا اللّه عَيانًا، فأخذتْهمُ الصَّاعقةُ بسببِ جَراءتِهم على اللّه، وسوءِ أدبِهم معه ﷻ، ثمَّ صَنَعُوا عِجْلًا بيدِ أشْقاهمُ السَّامريِّ - من بعدِ ما جاءتْهمُ المعجزاتُ الباهراتُ الواضحات - وعَبدوهُ من دونِ اللّه، ثمَّ عفا اللّه عنهم، ولم يَسْتأصلْهم، وقد آتَى اللّه - ﷻ - نبيَّه موسى حُجَّةً بيِّنة.

ورفعَ اللّه فوقَهم جبلَ الطُّورِ لَمَّا لم يلتزِموا أحكامَ التَّوراة بعدَ أخذِ العهْدِ عليهم بالْتزامِها، وأمرَهُمُ اللّه أنْ يدخُلوا بيتَ المقدسِ ساجدينَ للّه، ولا يَظلِمُوا أنْفُسَهم باصْطيادِهمُ الحيتانَ في يومِ السَّبت، وأخذَ اللّه عليهمُ العهدَ الموثَّقَ الأكيدَ في ذلكَ كلِّه في التَّوراة[2].

أفادتْ صيغةُ المضارعِ التَّعجيبَ من تعنُّتِ اليهود في كُفرِهم وسوءِ أدبِهم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبير عن السُّؤال بالمضارع:

جاءتْ صيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لبيانِ علَّتَيْن من علَلِ اليهودِ الكثيرةِ والقَبيحة، أوَّلُهما: اسْتحضارُ حالتِهمُ العجيبةِ في هذا السُّؤالِ الَّذي طَرحوه أمامَ رسولِ اللّه ﷺ،

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 553 - 554، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَدَا).

(2) وردَ أنَّ كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازر قالا لرسولِ الله ﷺ: إن كنت نبيًّا صادقًا فأتِنا بكتابٍ جملةً من السَّماء، كما أتى به موسى، فأنزلَ الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآية، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 6/6، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1103، والواحدي، أسباب النزول، ص: 189.

حتَّى كأنَّ السَّامعَ أو القارئَ يراهم وهم يَسألون، كقولِه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 38]، وقولِه: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾ [الصَّافَّات: 12]. وثانيهما: للدَّلالةِ على تكرارِ السُّؤال وتجدُّدِه مَرَّةً بعدَ أُخْرَى بأنْ يكونوا ألَحُّوا في هذا السُّؤالِ لقصدِ الإعْنات.

والمقصودُ على كلا الاحْتمالَيْنِ: التَّعجيبُ من هذا السُّؤال، ولذلكَ قالَ بعدَه: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ﴾[1].

دلالة الفاء في الجواب:

قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ في هذه الفاءِ قولان، أحدُهما: أنَّها جوابٌ لشرطٍ مُقدَّرٍ، معناه: إنِ اسْتكبرتَ ما سألوه منك؛ فقد سألُوا موسى أكبرَ من ذلك[2].

ويمكنُ أنْ يكونَ تعليلًا للجواب، أي: فلا تُبالِ بسؤالِهم وتَشْطيطِهم، فإنَّها عادتُهم فقد سألُوا موسى أكبرَ من ذلك[3].

السُّؤال من التَّكبُّر لا من طلب الحقِّ، وذلك من عاداتهم

علَّة نسبة السُّؤال إلى الحاضرين:

وإنَّما أُسندَ السُّؤالُ إليهم، وإنْ وجدَ من آبائهم في أيَّامِ موسى عليه السلام وهم النُّقباءُ السَّبعون؛ لأنَّهم كانوا على مذهبِهم وراضينَ بسؤالِهم لهم ومُضاهينَ لهم في التَّعنُّت، ولهم في ذلكَ عِرْقٌ راسِخٌ[4]، و﴿أَكۡبَرَ﴾: صفةٌ لمحذوف، أي: سؤالًا أكبرَ من ذلك.

أبناءُ اليهود في كلِّ عهدٍ على آثار آبائهم مقتدون

دلالةُ الجُملة التَّفسيريَّة، والصِّفة:

قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ هذه الجملةُ مُفسِّرةٌ لِكِبَرِ السُّؤالِ وعَظَمتِه.

و﴿جَهۡرَةً﴾: هي من صفةِ القَوْلِ أوِ السُّؤال، أو من صفةِ السَّائلين، أي: فقالوا مُجاهِرين، أو: سألوا مُجاهِرين، فتكونُ في محلِّ نصبٍ

أفادَ سياقُ الجُملةِ خُطورةَ سؤالِ اليهودِ ولاسيَّما مُجاهرتهم به

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/13.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/577.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/131.
(4) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/806.

على الحالِ من المرفوعِ في ﴿أَرِنَا﴾، أي: حالَ كونِكَ مُجاهرًا لنا في رؤيتِهِ غيرَ مُخْفٍ رؤيتَه، أوْ على المصدر[1].

نكْتةُ العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

اتِّخاذ اليهود العجلَ إلهًا أَعْظمُ جُرْمًا ممَّا حُكِيَ قبلَه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ عُطِفتْ به جملةُ: اتِّخاذِهمُ العِجْل، المفيدُ في عَطْفِه معنَى التَّراخي الرُّتَبيِّ، فإنَّ اتِّخاذَهمُ العجلَ إلهًا أَعْظمُ جُرْمًا ممَّا حُكِيَ قبلَه، ومع ذلكَ عفا اللّه عنهم، وآتَى موسى سُلطانًا مبينًا، أي: حُجَّةً واضحةً عليهم في تمرُّدِهم[2].

في الاتِّخاذ بيانٌ لكمال جهالتهم، وجحدهم نعم ربِّهم

وفيه بيانُ كمال جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم، وجحدهم نِعَمَ ربِّهم، فإنَّهم ما اكتفوا بعد نزول التَّوراة عليهم بطلب الرُّؤية جهرة، بل ضمُّوا إليه عبادة العجل، وذلك يدلُّ على زيغهم، وغاية بعدهم عن طلب الحقِّ والدِّين[3].

سرُّ التَّعبير بالظَّرف (فوق):

رَفْعُ الجبلِ جِسًّا فوقَ اليهودِ تخويفٌ لنَقضِهمُ العَهْدَ مع الله

يجوزُ أنْ يكونَ: ﴿فَوْقَهُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ ظرفًا لـ ﴿وَرَفَعْنَا﴾، وأنْ يكونَ حالًا من: ﴿ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾.

و﴿ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: في موضعِ نصبٍ مُتعلَّقٍ بـ ﴿وَرَفَعْنَا﴾، تقديرُه: بنَقْضِ ميثاقِهم، والباءُ في ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ للسَّببيَّة، والمعنَى كاملًا: ورفَعْنا فوقَهمُ الجبلَ؛ تخويفًا لهم وتحذيرًا بسببِ نَقْضِهمُ الميثاق[4].

العطفُ والحال، وأثرُهما في تجليةِ المعنَى:

أفادَ العطفُ والحالُ بيانَ أمرِ اللهِ لليهود بدخولِ بابِ بيتِ المقدسِ في حالةِ سُجودٍ وذُلٍّ للهِ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿وَرَفَعْنَا﴾، وقولُه: ﴿سُجَّدًا﴾ حال، أي: ادْخلوا البابَ حالَ كونِكم ساجِدين[5].

(1) العكبري، التبيان: 1/200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/140.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/15.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/257.
(4) العكبري، التبيان: 1/200.
(5) العكبري، التبيان: 1/200.

التَّعبير عن الدُّخول بالأمر:

في الأمر بدخول باب المدينة مطأطئي الرُّؤوس بهيئة السَّاجدين أمارة الخضوع حِسًّا، وهو دليل على الخضوع والإذعان لأوامر اللّه تعالى، وفيه تصريح بالطَّاعة المطلقة الَّذي يتضمَّنه الأمر بالدُّخول سجَّدًا مطأطئي الرُّؤوس خاضعين قد ذهب عنَّا الكبرياء[1].

الطَّاعة المطلقة، والإذعـــان لأمر الله واجبة على المؤمن

نكتة تكرار فعل القول:

وتكرَّر قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾؛ لبيان تأكيد الأمر، ونسبته إليه[2] ﷻ.

القول لله تعالى مؤكَّدًا

توجيه القراءات القرآنيَّة:

قولُه تعالى: ﴿لَا تَعْدُواْ﴾: فيه ثلاثُ قراءات[3]:

أفادتِ القراءاتُ القرآنيَّةُ اعْتداءَ اليـهـودِ في تَحايُلِهم في الصَّيدِ يومَ السَّبت

الأُولى: ﴿لَا تَعَدُّواْ﴾ بفتحِ العَيْن وتشديدِ الدَّالِ المضمومة، أصلُه: لا تَعْتَدُوا، والاعْتداءُ افْتعالٌ من العَدْو، يُقالُ: اعْتدَى على فُلان، أي: تجاوزَ حدّ الحقِّ معه، فلمَّا كانتِ التَّاءُ قريبةً من مَخْرجِ الدَّال، ووقعتْ مُتحرِّكَةً، وقبلَها ساكن؛ تهيَّأَ إدْغامُها، فَنُقِلَتْ حركتُها إلى العَيْنِ السَّاكنةِ قبلَها، وأُدغِمَتْ في الدَّال إدْغامًا لقصدِ التَّخفيف، ولذلكَ جازَ في كلامِ العربِ إظهارُها، فقالوا: تعتَدُوا وتَعَدُّوا؛ لأنَّها وقعتْ قبلَ الدَّال، فكانتْ غيرَ مجذوبةٍ إلى مَخْرجه، ولو وقعتْ بعد الدَّالِ؛ لوجَبَ إدْغامُها في نحوِ أَدَّان.

والثَّانيةُ: ﴿لَا تَعْدُّواْ﴾ بسكونِ العَيْن وتشديدِ الدّال.

والثَّالثةُ: ﴿لَا تَعْدُواْ﴾ بسكون العَيْنِ وتخفيفِ الدَّالِ، مضارعٌ مجزومٌ من العَدْو، وهو العُدْوَان[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.

(3) الأولى قراءةُ وَرْش عن نافع، والثَّانيةُ قراءُ قالون، وأبو جعفر، ولقالون أيضًا اخْتلاسُ فتحةِ العين مع تشديد الدَّال، والثَّالثةُ قراءة الباقين من العشرة، ينظر: محمَّد كريِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 102.

(4) العكبريّ، التبيان، ص: 200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/141، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/16، ويرى العكبريّ، والسَّمين أنَّ القراءة الثَّانية ضعيفة، لأنَّه جمع بين ساكنَيْن على غيرِ حدِّهما، وليس الثَّاني حرفَ مدٍّ، وهو ما لا يراه النَّحويُّون، ولكنَّ تَضعيف القراءة عند النَّحويين أو غيرهم لا يُعوَّلُ عليه، خاصَّةً إذا كانت القراءة متواترة، لأنَّ القراءة سُنَّةٌ مُتَّبعة، فهي حاكمةٌ لا محكومة.

علَّة إضافة الأخذ إلى الذَّات العليَّة:

الله يتولَّى أمرَ عباده وجزاءهم

وأضاف ﷻ الأخذ إلى ذاته العليَّة في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ "تقوية له، وتأكيدًا، فإنَّ ذا الجلال والإكرام العليم الخبير هو الَّذي أخذه، وهو الَّذي يتولَّى أمرهم؛ إن نكثوا في أيمانهم، وأنَّه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر"[1].

سرُّ تقديم شِبهِ الجُملة:

في التَّقديم قصرُ الميثاقِ عليهم

في تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿مِنْهُم﴾ على ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ قَصْرٌ على أَخْذِ الميثاقِ من اليهود لا من غيرِهم، وفيه تأكيدٌ على حصولِه.

بلاغة الكناية:

أفادتِ الكنايةُ قوَّةَ العهدِ الَّذي أخذَهُ اللهُ على اليهود، ومن ثَمَّ نَقْضهم له

المرادُ بالميثاقِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: العَهْد، وَوَصْفُه بالغَليظ، أي: القَويُّ، والغِلَظُ من صفاتِ الأجسام، فاسْتُعيرَ لقوَّةِ المعنَى، وكُنِّيَ به عن تَوَثُّقِ العهد؛ لأنَّ الغِلَظَ يستلزمُ القُوَّة، والمرادُ جِنْسُ الميثاقِ الصَّادقِ بالعهودِ الكثيرةِ الَّتي أُخذَتْ عليهم، والمقصودُ من هذا البيانِ إظهارُ تَأَصُّلِهم في اللَّجاجِ والعِنادِ من عَهْدِ أنبيائهم؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ على ما لَقِيَ منهم، وتمهيدًا لقولِه القادم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النِّساء: 155][2].

في غِلَظِ الميثاق فطمُ نفوسِهم عن الشَّهوات

وغلَّظ الميثاق، وشدَّد في موضوعه؛ لكونه أمرهم بالطَّاعة المطلقة، وكلَّفهم تكليفات شديدة، لإفراطهم في الفساد، فكان السَّبيلُ لفطْم نفوسهم عن الشَّهوات، وتربيتها على الضَّبط والعمل الصَّالح أن ينصَّ على تحريم أمور كثيرة[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1947.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/16.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1947.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّاعقة والعَذاب والنَّار والمَوت:

الصَّاعقةُ مرادةٌ في الآية بوصفها سببًا لأصناف العذاب الأخرى

ذكرَ البيانُ الإلهيُّ الصَّاعقةَ، ولم يذكرْ أيًّا من المفرداتِ السَّابقة، وهي وإن كانتْ تحُلُّ محلَّها، لكنَّ سياقَ النَّصِّ القُرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ أرادَ أنْ يذكرَ المُؤثِّرَ لا الأثَر، والسَّببَ لا المسبَّب، فالموتُ والعذابُ والنَّارُ هي تأثيراتٌ للصَّاعقة[1]، ويمكنُ أنْ تحصُلَ جميعُها مع بعضِها، فتُصيبُ الإنسانَ النَّارُ المُحرقةُ الَّتي تُسبِّبُ العذابَ ثمَّ الموت، أوْ تحدُثُ كلُّ واحدةٍ مُنفرِدَة، فالسِّياقُ ذكرَ الأساسَ وهو الصَّاعقةُ، وهي الصَّوتُ الشَّديدُ من الجوِّ الَّذي يكونُ منها النَّارُ أوِ العذابُ أوِ الموتُ أوْ جميعُها مُتلاحقةً - كما تقدَّم - لِيُصيبَ القلوبَ ذلكَ الخوفُ الهالِع، والجَزَعُ الخالِع، لما أنَّ اليهودَ طَغَوْا في ظُلمِهم، وسَدَرُوا في غَيِّهم، وتكبَّروا وتعنَّتوا، فلم يَرْعَوُوا، ولم يَتوبُوا.

(اتَّخذ) و(أَخَذ) و(عَبَد):

اليهودُ افْتعَلوا أَخْـذَ العِـجْـلِ للعبادة، ولم يعبدُوه مباشرةً

الاتِّخاذُ: أخذُ الشَّيء لأمرٍ يستمرُّ فيه، مِثْل: الدَّارِ يتَّخذُها مَسْكنًا، والدَّابَّةُ يتَّخذُها قَعْدَة، ويكونُ الاتِّخاذُ التَّسميةَ والحُكْم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أي: سمَّوْها بذلك، وحكَموا لها به، وكما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾.

الأخذُ: مصدرُ أخذتُ بيدي، ويُستَعار، فيُقالُ: أخذَه بلسانِه؛ إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاءَ بمعنَى العذابِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [المؤمنون: 41][2].

والعبادةُ: مصدرُ (عَبَدَ)، وهي غايةُ الخُضوع، ولا تُستحَقُّ إلَّا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 485.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 29.

بغايةِ الإنعام، ولهذا لا يجوزُ أنْ يُعبَدَ غيرُ اللّه تعالى، ولا تكونُ العبادةُ إلَّا معَ المعرفةِ بالمعبود[1].

والسِّياقُ القرآنيُّ في الآيةِ الكريمةِ استخدمَ فعلَ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ - وهو الألْيَقُ بالسِّياق - الَّذي هو افْتعالٌ من الأَخْذ، فاليهودُ افْتعَلوا أَخْذَ العِجْلِ للعبادة، ولم يعبدُوه مباشرةً إلَّا بعدَ أنْ سوَّلَ لهمُ السَّامريُّ، ونزَغَ في قلوبِهم أنَّ هذا العجلَ هو إلهُهُم، كما أوضحَ بيانُ اللّه ذلكَ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: 85]، وقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: 87 - 88]. وقولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ [طه: 95 - 96].

السُّلطان والبُرهان:

البُرهانُ: إظهارُ صحَّةِ المعنَى وإفسادُ نقيضِه[2]، والسُّلطانُ: إظهارُ ما يتسلَّطُ به على نَقيضِ المعنَى بالإبْطال[3]، وهو الحُجَّة، حتَّى أنَّها سُمِّيتْ به، كما في الآية: ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حُجَّةً واضحة.

في السُّلطان إبطالٌ لكلِّ ما يُناقِضُ المعنَى الحقَّ في دعوى اليهود في العِجْل

ولذلكَ استعمل سياقُ الآيةِ الكريمةِ كلمةَ (سُلطانًا) بدلَ (بُرهانًا)؛ لأنَّ فيه إبطالًا لكلِّ ما يُناقِضُ المعنَى الحقَّ، ممَّا ادَّعاهُ اليهودُ في العِجْل، فكانَ أنْ آتَى اللّه موسى عليه السلام الحُجَّةَ المبيِّنة، قالَ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: 89]، وقالَ ﷻ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: 97 - 98].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 35.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والكفوي، الكليَّات: 3/3.

والسَّلطان: هو القدرة، وهو السَّلطة، وقد أعطى الله ﷻ موسى عليه السلام القوَّة التي تدفع الباطل، وتزيل المضلَّل، فأعطاه المعجزات الباهرات البيِّنة الواضحة الَّتي تبيِّن الحقَّ، وتزيلُ الشُّبهة، وأعطاه القوَّة التي غلب بها فرعون طاغية الدُّنيا في عصره[1]، وليس شرطًا في البرهان أن يضمن معنيي القدرة والقوة، فهو إظهارٌ للحجَّة بهما أو بدونهما، بخلاف لفظ السُّلطان المقترن بهما ملازمة، وذلكم وجهٌ في إيثاره في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ على غيره.

السلطانُ قدرةٌ، وقـوَّةٌ، وسلطةٌ وقد وهبها الله موسى عليه السلام

(لا تَعْدُوا) و (لا تَتَجاوزوا):

جازَ الموضعَ: سَلَكه وسارَ فيه، وأجازَه: خَلَّفَه وقَطَعَه، والمجازُ من الكلام: ما تجاوزَ مَوضِعَه الَّذي وُضِعَ له، والحقيقةُ مالم يتجاوزْ ذلك، وأجازَ له، أي: سوَّغَ له ذلك[2]، فالتَّجاوز تعدٍّ للشَّيء من غير اعتداء، أو عدوان.

اليهود تجاوزوْا حـــدودَهـــم، وارتـكـبُـوا كـلَّ شنيعةٍ، وظلم

أمَّا ﴿تَعْدُواْ﴾؛ فهي بمعنَى: الاعْتداء، أي: مجاوزةُ الحقِّ[3]، ولذلكَ وردتْ في سياقِ العِصيانِ للّه ورسوله، والعاقبة الوَخَيْمَة، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النِّساء: 14].

وقدْ تعدّى اليهودُ حدُودَ اللّه ورسولِه، وتَحايَلوا على أوامرِ اللّه، فَجاوَزوا الحقَّ، وطَغَوْا، وبَغَوْا، وهذه المعاني أَلْصَقُ بالسِّياقِ القُرآنيِّ وأوْفَى بالْمُرادِ منه، ممَّا لا تَفي به كلمةُ (التَّجاوز) الَّذي قد يكونُ بالخيرِ، أو بالشَّرِّ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 212، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (جَوَزَ).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 554، والفيروزآبادي، القاموس: (عَدَا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»